جرائم الغنى والفقر

مصطفى لطفي المنفلوطي

د. سامر مظهر قنطقجي

مقدّمة: إنّ تباين أحوال الأفراد في المجتمعات يعود إلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يعيشها أفراد مجتمع ما، ونظراً لكثرة الابتلاءات التي تعرض لها أبناء الوطن العربي وجد الأدباء أصحاب الحسّ الاجتماعي مادة غزيرة لفكرهم، فحاولوا تقديم سبل العلاج لكنه غالباً ما كان علاجاً مبتوراً تنقصه العلمية والموضوعيّة لأنّه يقوم على مخاطبة العواطف، ويتّسم بالجهل بخبايا النّفس التي تحتاج إلى التّهذيب بالإقناع تارة وبالتّرغيب والتّرهيب تارة أخرى.

وهذه المقتطفات من نصّ الكاتب (مصطفى لطفي المنفلوطي) الذي لمع نجمه في مطلع العصر المنصرم حيث سادت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية المزرية في أقطار الوطن العربيّ كافّة وعانى المواطن المسحوق مرارة العيش حاول من خلاله الرّد على الرّأي الآخر لوجهات نظره:

يقولون: إن الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات.
وأنا أقول: إن للأغنياء جرائم كجرائم الفقر بل أشد منها خطرا وأعظم هولا.

فإن كان بين الفقراء اللصوص والقتلة وقاطعو الطرق، فبين الأغنياء المحتالون والمزورون والمغتصبون والخائنون وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم، والتجار الذين يسرقون من الأمة في شهر واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد في سنة كاملة، والأوصياء الذين يرثون التركات من دون وارثيها، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها، والسماسرة الذين يغتالون الأسواق بأجمعها، والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها، والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها.

على أن الجرائم اللصوصية والسرقات والقتل ليست جرائم الفقر، بل جرائم الغنى: فلولا شح الأغنياء بأموالهم، وكَلَبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وُجد في الأرض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق، ولا يسرق السارق الا جزءا من حقه الذي يجب أن يكون له، لو كان للمال زكاة وللرحمة سبيل إلى الافئدة والقلوب.

ليفتح الأغنياء المدارس، وليبنوا الملاجئ، ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين، وليتعدوا المنكوبين والساقطين في ميدان الحياة بالمساعدة والمعونة، فإن وجدوا بعد ذلك لصوصا أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر.